وفلسفة ابن طفيل

بقلم الاب توما اليسوعي

٣

اكتشاف وجود الله بالبرهان (١)

وبتوجب هذين المبدأين او المعنيين ، المادة والصورة ، كما رأينا سابقا ، اخذ يفحص سائر المخلوقات ليعرف عللها ، فاعتبر ان « كل حادث لا بد له من محدث ، فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار فاعلاً للصورة ، ارتساماً على العموم ، دون تفصيل . وتتبع الصور التي كان قد عاينها قبل ذلك ، صورة ، صورة ، فرأى انها كلها حادثة وانها لا بد لها من فاعل ... فلما لاح له من امر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته . وطلب ذلك الفاعل من جهة المحسوسات فلم يجده ، وانتقلت فكرته الى الاجسام السماوية . وانتهى الى هذا النظر على رأس اربعة اسابيع من منشئه وذلك ثمانية وعشرون عاماً .

ودرس حركة الافلاك وقرر انها صادرة عن فلك واحد وهو الاعلى

فلما انتهى الى هذه المعرفة ووقف على ان الفلك بجملته وما يحتوي عليه كشيء واحد متصل بعضه ببعض ، وان جميع الاجسام من نبات وحيوان كلها ضمنه ، وانه كله اشبه بشخص من اشخاص الحيوان ، وان ما فيه من الكواكب المنيرة هي بمنزلة حواس الحيوان ، والافلاك بمنزلة اعضائه ، وما في داخله من عالم الكون والفساد هو بمنزلة ما في جوف الحيوان من اصناف

(١) عبرنا عن افكار ابن طفيل بعباراته ذاتها ما امكن مع مراعاة واجب الايضاح والاختصار .

الفضول والرطوبات . . . تفكر في العالم بجملته هل هو شيء حدث بعد ان لم يكن ، وخرج الى الوجود بعد العدم ، او هو امر لم يزل موجودًا ولم يسبقه العدم . ولم يترجح عنده احد الحكمين على الآخر . لكنه استنتج من معنى الحدوث وجود المحدث :

«وهو الموجود المحض الواجب الوجود بذاته المعطي لكل ذي وجود وجوده فلا وجود الا هو ، فهو الوجود ، وهو الكمال ، وهو التمام ، وهو الحسن ، وهو البهاء ، وهو القدرة ، وهو العلم ، وهو هو ، كل شيء الا وجهه . فانتهت به المعرفة الى هذا الحد على رأس خمسة اسابيع من منشئه وذلك خمسة وثلاثون عامًا» .

وتبين له ان ذاته التي ادرك بها الله امر غير جسماني لا يجوز عليه شيء من صفة الاجسام ، وان كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسمانية فانها ليست حقيقة ذاته . وانما حقيقة ذاته ذلك الشيء الذي ادرك به الموجود الواجب الوجود ، ودرس الاجرام السماوية ، وحكم فيها انها تعقل وتعرف الله . والتمس لنفسه سبيل الصلاح ليتأسى بالموجود الواجب الوجود مع ما فيه من كمالات .

واجب الناموس الادبي

«فاتجهت عنده الاعمال التي يجب عليه ان يفعلها نحو ثلاثة اغراض : اما عمل يتشبه به بالحيوان غير الناطق ، واما عمل يتشبه به بالاجسام السماوية ، واما عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود . فالاول من حيث له البدن المظلم ذو الاعضاء المنقسمة والقوى المختلفة والمنازع المتفننة . والثاني من حيث له الروح الحيواني الذي مسكنه القلب . والثالث من حيث هو هو اي من حيث هو الذات التي بها عرف ذلك الموجود الواجب الوجود . وفي هذا التشبه الثالث تحصل المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه الا الى الموجود الواجب الوجود . والذي يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه ، وفنيت وتلاشت ، وكذلك سائر الذوات ، كثيرة كانت او قليلة الا ذات الواحد الحق الواجب الوجود

طريقة الاتصال والاتحاد بالله

وداوم نفسه على اكل البقول وامتنع عن اكل الحيوانات ، وجعل يطرح عن نفسه كل عناية بما حوله، وما زال يقتصر على السكون في قعر مغارته مطرقاً غاضًّا بصره ، معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية ، مجتمع الهم والفكرة في الموجود الواجب الوجود . ودأب مدة طويلة ، ربما قرّ عليه عدة ايام لا يتغذى فيها ولا يتحرك ، وفي خلال شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الاشياء الا ذاته ، فانها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الحق الواجب الوجود . فكان يسوءه ذلك ويعلم انه شوب في المشاهدة المحضة وشركة في الملاحظة. وما زال يطلب الفناء عن نفسه والاخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك. فغابت عن ذكره وفكره السموات والارض وما بينهما ، وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية ، وجميع القوى المفارقة للموادّ التي هي الذوات العارفة بالموجود ، وغابت ذاته في جملة تلك وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منبثًّا ؛ ولم يبقَ الا الواحد الحق الموجود. وهو يقول بقوله الذي ليس معنى زائداً على ذاته . . . وعند ما افاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله انه لا ذات له يغاير بها ذات الحقّ ، وان حقيقة ذاته هي ذات الحقّ ، وان الشيء الذي كان يظن اولًا ، انه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة بل ليس ثم شيء الا ذات الحق .

وبقي على حالته تلك حتى اناف على سبعة اسابيع من منشئه وذلك خمسون عاماً وحينئذٍ اتفقت له صحبة أسال (ص ١٠٤)

طريقة المقربين لا توافق الجمهور

وكان اسال رجلًا تقياً ، اتى من الجزيرة المجاورة الى جزيرة حي بن يقظان على امل ان يجدها خالية من السكان فيمكنه فيها على الحياة الروحية. وعلّم أسالُ حي بن يقظان الكلام وتحدث اليه فدهش لكيفية نشأة افكاره وتطوّرها واكتشافها اسمى عقائد الدين بطرائق خفية ، وتعرفها ما اوحاه الله من امر الثواب والعقاب والفرائض . وفرح الرفيقان لاتفاقهما على العقائد

ذاتها مع كونهما قد بلغا اليها بطرائق مختلفة : اسال ، باتخاذها من البشر بالتطعيم ، وحيّ ، بقوة عقله وفلسفته . ولما علم حيّ من رفيقه بوجود بشر في الجزيرة المجاورة يقولون بالدين وعقائده ولا يسلكون طرق الكمال في فرائضه ، فيأكلون لحم الحيوان ، ويتمشون بالملاهي ، ويتملكون الاموال عقد النزعة على القصد اليهم لتبشيرهم وتعليمهم طرق الزهد . فسافر الرفيقان وحلّا عند سلامان ، زعيم الجزيرة ، ضيفين مكرمين . واخذ حيّ بن يقظان يعلم الزعيم وخاصته ، وهم نبلاء القوم وانجباؤهم ، طرق الزهد بالعالم والاتصال بالله من غير الطرائق الحسية التي تلهي الحواس ولا تشفي غليل الارواح .

« فما هو الا ان ترقى عن الظاهر قليلاً واخذ في وصف ما سبق الى فهمهم خلافه ، فجعلوا ينقبضون عنه وتشمئز نفوسهم عما يأتي به . . . فعلم وصاحبه اسال ان هؤلاء لا نجاة لهم الا بالطريقة التي نشأوا عليها ، وان طائفتهم ان رُفعت عن بقاع الاستبصار اختلّ ما هي عليه ولم يمكنها ان تلحق بدرجة السعداء ، فتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها ، وان هي دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين (الموت) فازت بالامن وكانت من اصحاب اليمين ؛ واما السابقون فاولئك المقربون . فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا في العود الى جزيرتهما . وطلب حيّ بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه اولاً حتى عاد اليه ، واقتدى به أسال حتى اقترب منه او كاد ، وعبدا الله بتلك الجزيرة حتى اتاهما اليقين »

نقد فلسفة ابن طفيل

كل ما قاله ابن طفيل في وصف انواع الاشياء من نبات وحيوان وانسان جدير بالاعتبار ، وهو لسان حال وخلاصة ما قاله المدرسيون في القرون الوسطى عن طبيعة الاشياء ومادتها وصورتها . ولا يسعنا الا التحريض على قراءته مطوّلاً في قصة حيّ بن يقظان ، وفيه فوائد ادبية ولغوية جمة فضلاً عن اسلوبه المنطقي الفلسفي المروّض الفكر على النظر .

اما تدرّج حيّ بن يقظان الى الكشف على الموجود الواجب الوجود ،

سبحانه وتعالى ، من تعليل الحدث المقتضي فاعلاً يحدثه ، سواء اكان الكون محدثاً او ازلياً ، فهو ايضاً صفحة جميلة حقيقة ان تتخذ مادةً للشرح في المدارس.

هذا ، ولقصة حي بن يقظان وجوه تحتمل النقض رأينا ان ننوه بها فنقول ، ان شاء الله ، ما يحول دونها ودون فهم القارئ المستقيم الرأي ، اذا ما اقبل على تصفحها . فان ابن طفيل يؤاخذ في نظرنا ، خاصةً : ١ً باهماله امر النعمة وسقوط الطبيعة البشرية . ٢ً بتفضيله المعرفة بالعقل على المعرفة بالايمان . ٣ً باعتقاده الانسان قادراً على رؤية الله في هذه الحياة ٤ً باقواله المنتجة مذهب تأليه الكل او البانتيسم

١ً ان الله خلقنا لغاية توخاها ، غير موازية لطبيعتنا البشرية ، بل متفوقة على مطلباتها وقواها . وذلك انه اختارنا للحياة الدائمة المتوقفة على الاشتراك في حياته عينها ، ونحن مدعوون لنرى الله كما يرى ذاته ، ونعلمه كما يعلم ذاته ، ونحبه كما يحب ذاته . وبما ان الطبيعة البشرية قاصرةٌ بقواها عن البلوغ الى تلك الغاية القصوى ، فقد اعطانا الله النعمة وسيلةً اليها . فالنعمة ضرورية لنا وهي قوة فائقة الطبيعة تمكننا من الوصول الى مشاهدة الله . فالانسان لا يسير الى غايته الفائقة بعون خارجي فحسب ، بل بمبدأ داخلي ملازم لحياة سامية ، انما هي النعمة وهي موهبة من الله مجانية ، وليست ثمر مجهودات الانسان . اما ابن طفيل فقد اهمل امر النعمة اهمالاً باتاً او كاد . نعم قد ذكر ، خلسةً ، ان الاتصال لا يتمّ الا لمن منّ الله عليهم به ، ولكن ليست تلك الموهبة بموجب كلامه لتفترق فرقاً جوهرياً عن سائر المواهب الطبيعية التي يمنّ بها الله على البشر . فنشأ حيّ بن يقظان ونما وبلغ اسمى درجات الكمال بقواه البشرية ؛ وهذا ، في تعليم اللاهوتيين ، ضربٌ من المحال ، والقول به مخالف للعقل وللوحي ، وحسبنا التنبيه عليه.

وكما ان ابن طفيل اهمل شأن النعمة كذلك ضرب صفحاً عن امر الخطيئة الاصلية وسقوط الطبيعة البشرية ، الذي يجعل انسان الفطرة عاجزاً عن اكتشاف غايته الفائقة الطبيعة ، ما لم يمنّ الله عليه بالوحي فيكلمه بكتبه المقدسة ويكشف له غوامض اسراره.

٢ً اما الوحي وما له من التعاليم المدوّنة في الكتب المقدسة او الناتجة عنها بالاجتهاد والتفسير ، فقد نجّى ابن طفيل حقه اذ جعله دون العقل الفلسفي مرتبةً ونفوذًا . والفلسفة عنده ليست « خادمة » لعلم اللاهوت ، بل هي مستقلة بذاتها ومقصودة لذاتها ، كونها بذاتها طريقة الاتصال بالله .

واذا فطن القارئ اللبيب الى كيفية نشأة حيّ بن يقظان وتعلمه وترقيه حتى بلوغه الكمال والاتحاد بالله ، لا بمعرفة الكتاب والشريعة بل بفضل عقله وفطرته ، فهم مرامي واغراض ابن طفيل من عرضه شخصية حيّ على المسرح تجاه السال ، الرجل الذي عرف الكتابة « والملة » ولم يستطع ان يتقرب الى الكمال بما تعلمه منها ، ولكن باقتدائه بحيّ بن يقظان « حتى قرب منه او كاد » .

فنتيجة البحث اذن ، على رأي ابن طفيل ، هي ان العقل والايمان يتفقان على معرفة الله ولا تناقض بين الدين والفلسفة ، وان ذلك لصحيح . اما كون معرفة الله الفلسفية اسمى من المعرفة الدينية المكتسبة من الكتاب ، فليس ذلك بصحيح ولم يجرأ ابن طفيل على التصريح به ، ولكنه مفهوم من قصة حيّ بن يقظان . وقد تضاربت آراء المسلمين في صحة هذا الاستنتاج وهي عقدة من العقد التي حاولوا حلها في مدارسهم الفلسفية . وتفرقوا طرائق في حلها وهي التي صارت سبباً لاضطهاد الفلاسفة بينهم .

وباقي القصة مصداق للتأويل الذي سبق . لان سلامان ورجاله « هم اقرب الى الفهم والذكاء من جميع الناس ومع ذلك فلما قصد حيّ بن يقظان ان يعلمهم طرق الكمال عجز وكان عن تعليم الجمهور اعجز » . فاضطر الى الاعراض عنهم والعودة الى جزيرته .

٣ً اما بلوغ حيّ بن يقظان الاتصال بالله طبقاً للوصف الذي وصفه ابن طفيل فله وجهان : فوجه الصواب ان الله قد عين على الانقياء القلوب من البشر بنعمة تبررهم وتؤهلهم الى الاتحاد به . فينالون بنعمته البر والاتحاد ، بعناية خاصة من لدنه تعالى . وقد يبلغون بفضل تلك النعمة درجات من الكمال سامية ويعرفون الله معرفة فائقة ، سرية ، كمعرفة القديسين ، من غير استعمال الحواس ،

عقلية محضة. ولكن بين هذه المعرفة ومعرفة الرؤيا في المنام فرق ما بين السماء والارض. وهذا الفرق لا يظهر في كلام ابن طفيل، وهو وجه الخطأ في القصة.

٤ ثم ان معرفة الرؤيا في المنام وجهاً ازاء وجه على ما فيها من كمال الاتحاد به تعالى ومشاركته بطبيعته وسعادته، لا تفني شخصيتنا.

وضلّ ابن طفيل اذ قال ان حي استطاع ان يرى الله وجهاً لوجه، واغلظ في الغلط لما نسب الى بطله فناءه واضمحلاله في اللاهوت.

نعم لقد تدارك النقد من هذا السبيل وقال: ان من يلومه على مقالاته فقد اساء فهمه. ولكن لا سبيل الى التنصل من اللوم، ومتن الكتاب صريح كما رأينا. وقد يساعد على فهمه بمعناه الضالّ سائر ما ورد فيه من وصف ارتياض حيّ بن يقظان على التقشف والصيامات شأن البوذيين الهنود، ومن المعلوم ان هؤلاء يؤدي بهم مذهبهم الى البانتيسم او اضمحلال الكل بالله او الى تأليه الكل.

* * *

قد امتدحوا اسلوب ابن طفيل التأليفي واطرأوا لغته، ولا مغالاة بالمديح. ولا يسعنا الا ان نستحثّ الادباء على قراءته بعد ان نبهناهم على مواضع الخلل فيه. ولكن لا بد من ان نضيف الى تلك الملاحظات ان اقسام الكتاب تتفاوت سهولة للمطالعة واقتراباً للفهم. وبينما نرى بعضها رائقاً لطيفاً، سائغ القراءة، منبه الافكار، موسع النظرات، فان غيرها لم يخلع حلة الغموض ولم ينبذ تعقيد الافكار، وعلى الاخص في المقدمة، وفي المواضع التي يعرض فيها ابن طفيل الى الكلام على الحياة الروحية كأنه يضنّ بفهمها على عامة القراء. ولكن من طالع قصة حي بن يقظان وراجعها وثبت عليها بجلد واستعان عليها بما يعرف عن فلسفة القرون الوسطى فسوف يوافق الافرنج على حكمهم: انها آية من آيات القصص العربية الحكمية ومختصر فلسفة العرب.